

1

ما الذي تتمناه لأطفالك أكثر من أي شيء آخر؟

ليس هناك ثروة سوى الحياة -

- جون رسكن (1819 - 1900)،

ناقد فني ورسام بريطاني

من أجل التسلية والمتعة، استطلع آراء أولياء الأمور الذين تعرفهم، واطرح عليهم السؤال الذي عُنون به هذا الفصل: ما الذي تتمناه لأطفالك فعلاً؟ وبانتظار نتائج الاستطلاع، اطرح السؤال ذاته على زوجك، ولاحظ ما ستكتشفه عندما تبدأ بقراءة هذا الكتاب. وبعد أن تتلقى الردود، قم بتصنيفها، وسوف تجد أنها تتمحور حول موضوع رئيس.

وقد وجدت من خبراتي بعد طرح هذا السؤال على أولياء الأمور، وإعطائهم الوقت الكافي للتفكير في أهمية هذا السؤال العميق، أنّ الإجابات كانت من بين الإجابات الواردة في القائمة الآتية:

أريد لأطفالي أن:

- يكونوا سعداء، وأن لا يعانون من الفشل في الحياة.
- يعرفوا كيف يتمتعون بالحياة، وأن يقدرُوا قيمة كل يوم على أنه معجزة.
- يكونوا ناجحين ومهمين كأفراد بصرف النظر عما يقومون به.
- تكون لديهم مشاعر إيجابية تجاه أنفسهم والآخرين.
- يكبروا وهم يعرفون كيف يواجهون المشكلات التي لا مفرّ منها، ويتصرفون عليها، ولا يجعلونها تهزهم بأيّ صورة من الصّور.
- يكونوا متحررين من الإحباط والتعاسة.

- لا يكونوا عصبيين
- يكون لديهم إحساس قويّ بالسّلام الدّخلي الذي يساعدهم على الصّمود في الأيام الصّعبة.
- يقدّروا قيمة اللحظة التي يعيشونها؛ أن يتمتعوا برحلة الحياة، وأن يتجنبوا التّشبّث في محطة بعينها.
- يدرّكوا أنّهم الذين يرسمون حياتهم، وأنّ لديهم القوة ليختاروا حياتهم ويغيّروها.
- يكونوا حساسين ومسؤولين تجاه الطبيعة والبشرية.
- يكتشفوا قدراتهم وإمكاناتهم، وأن يشعروا بالرضا والتّحدي تجاه هدف ما في الحياة.
- يكونوا محبّين ومحبوبين.
- يكتشفوا الفرص الكامنة في خبرات الحياة المؤلمة التي لا مفرّ منها.
- يكونوا على وئام مع الصّحة؛ الجسديّة والعقليّة.

كانت هذه هي الإجابات التقليدية التي تلقيتها، وقد اختزلتها في جمل قليلة بسيطة. لقد ظهر لي أنّ أولياء الأمور ليسوا مهووسين بفكرة أن يصبح أطفالهم أغنياء ومشهورين، أو أن تكون حياتهم خالية من المشكلات. ولم يظهر أنّ أولياء الأمور مصممون على أن يحظى أطفالهم بوظائف شاعرية، وبيوت جميلة، وزواج مثالي، و حياة عائلية مثالية كتلك التي تصورها المسلسلات التلفزيونية وأفلام السينما. بل يبدو أنّ أولياء الأمور هؤلاء واقعيّون في تحديد أهدافهم لأطفالهم. وهم يعرفون أنّ الأشياء المادية ليس بالضرورة هي التي تجلب لأبنائهم السّعادة. ولهذا، فإنّهم لا يريدون أن يعلموا أطفالهم جمع الأشياء بحثاً عن السّعادة. وقد أدركنا جميعاً، في السّنوات الأخيرة، أنّ التّمكّك، والمنصب، وتكديس الثروة، وبعض مقاييس الحياة الناجحة لم تعد مناسبة. وقد سمعنا روايات كثيرة عن أشخاص ناجحين أدمنوا تناول المهدئات، وهم يزورون الطّبيب النّفسي بانتظام، وأنهم يعانون الاكتئاب، ويرون أنّ الانتحار هو الحلّ لمشكلات الحياة. أو أنهم مشغولون دائماً في جمع المزيد لدرجة لم يعد لديهم الوقت للاستمتاع بالحياة.

لقد أصبح الناس ينظرون بحذر إلى مرادفات النجاح غير المرغوب فيها، ويريدون لأطفالهم امتلاك السكينة والسعادة بدلاً من ذلك، مما يجعلهم يصمدون حتى أمام أسوأ الأوقات العصيبة. وأنا على ثقة أنكم تريدون أن ينشأ أطفالكم كبالغين، قانعين، ومعافين، وقادرين، على معالجة صعوبات الحياة جميعها، دون أن يسمحوا لها بالسيطرة عليهم، أو هزيمتهم بأيّ طريقة كانت، أو أن تترك فيهم جروحاً غائرة تجعلهم يلجؤون إلى تدابير خارجية مثل الحبوب المهدئة والعلاج النفسي، أو حتى العمليات الجراحية ليتمكنوا من التكيف مع الحياة. وباختصار، فأنتم تريدون لأطفالكم أن يكبروا ويكونوا مستقلين في كل جانب من جوانب الحياة، وأن يتمتعوا بالحياة دون أن تتشكل لديهم مواقف غاضبة أو انسحابية. كما أنكم تريدون لأطفالكم أن يكونوا إيجابيين لا متذمرين تجاه حياتهم، وتريدون منهم أيضاً أن يشعروا بأنهم ناجحين بدلاً من الاعتماد على عامل خارجي لتحديد درجة نجاحهم.

القدرة على التمتع بالحياة

للحظة، ففكر في الأفضلية الكبرى في الحياة، وتصور أنك وأطفالك قد منحتهم القدرة على الاستمتاع بها، بالرغم من الظروف المحيطة بكم. فإذا هجرك شخص ما أو قاطعك، فأنت لا تزال تعرف كيفية الاستمتاع بالحياة. وإذا ما أصبت بمرض خطير، أو واجهتك مشكلة صعبة، فإنك ما تزال قادراً على الاستمتاع بها أيضاً. إنّ خيبات الأمل تحدث وتختفي، ولكنك تظل دائماً تعرف كيفية الاستمتاع بالحياة بسبب الهبة الداخلية لديك.

وإذا امتلكت هذه القدرة الخيالية، فلن تكون عبئاً على الآخرين، وعندئذٍ لن تكون أنانياً، بل ستكون إنسانياً إلى أبعد الحدود. وبالطبع، إذا كنت تستطيع الاستمتاع بالحياة دائماً، فلن تضع مجموعة من التوقعات للآخرين كي يوفروا المتعة لك، بصرف النظر عما يختارونه في أي وقت من الأوقات. ولهذا، فإن القدرة على الاستمتاع بالحياة في الأوقات جميعها هي، بلا أدنى شك، هبة رائعة.

هذه القدرة موجودة لديك! وليس من الضروري وجودها في مخيلتك فقط. وبإمكانك أن تجعلها واقعاً بالنسبة لك، وأن تنقل هذه الميزة الرائعة إلى أطفالك أيضاً. وبعد مراجعة الأهداف التي تتمناها لأطفالك كلهم، ودراسة الأشياء الممكنة التي قد توفرها لهم جميعها، فإن هذه الأهداف تختزل دائماً في رغبة واحدة: أتمنى لأطفالي دائماً امتلاك القدرة على

الاستمتاع بالحياة. فإذا كانت هذه الجملة تصف ما تتمنى أن توفره لأطفالك، فبإمكانك أن تجعلها أولوية بدءاً من اليوم. وإذا ما قدّمت هذه الهبة الرائعة لأطفالك، ومنحتها لنفسك في الوقت ذاته، فإنّ مكافأتك ستكون أطفالاً يكبرون وينضجون ليصبحوا من أكثر البشر فاعلية في هذا الكوكب. إنّ الأفراد الذين يحدثون فرقاً وتغيّراً في هذا العالم ليسوا أولئك القلقين على سعادتهم الشخصية، بل الذين يفترضون ببساطة أنّ هذه السعادة متطلّب سابق لإنسانيتهم. إنّ الأفراد الذين يشعرون أنهم ناجحون، والذين يكون أداؤهم عند أعلى مستوى، هم القادرون على تجاهل الحاجة إلى وجود شخص يعطيهم حقنة السعادة. إنّ أصدق تعريف أعرفه للشخص اللامحدود هو أنه الشخص الذي يعرف كيفية الاستمتاع بالحياة عندما يفقد الناس الذين من حوله عقولهم.

وعلى افتراض أنّ معظم أولياء الأمور يرغبون في غرس هذا النوع من الموقف العام للاستمتاع بالحياة عند أطفالهم، فأين يحدث الخلل بين ما تتمناه بصدق أن توفره لأطفالنا، والحقيقة التي نواجهها كلّ يوم؟ ولماذا يوجد كثير من البالغين والمراهقين الذين يتناولون المهدئات ليمرّ يومهم بسلام؟ (سنوياً، هناك نحو 100 مليون وصفه طبية تصدر في الولايات المتحدة وحدها لصرف مهدئات الفاليوم والليبريوم). فلم نتناول الأقراص لنستطيع النوم، أو لنظل مستيقظين، أو لنخفّف من توترنا، أو لنستمد الطاقة، أو لنخلص من الشقاء، أو لنبطئنا أو تسريعنا؟ ولماذا يعاني كثير من الناس التوتّر الشديد؟ وإلّا يُعزى استمرار معدلات الانتحار في الارتفاع، وخاصة بين الشباب؟ ولم أصبحت زيارة الطبيب النفسي حدثاً يومياً متكرّراً؟ وما سبب هذا الانتشار الواسع للمخدرات والكحول من أجل الحصول على النشوة؟ ولماذا يسود الغضب والعداوية في عالمنا؟ وما سبب لجوء الأفراد إلى أساليب يائسة لإسماع أصواتهم؟ إذا كنا نريد أن يكون الأطفال قادرين على الاستمتاع بالحياة، فمن أين يأتي هؤلاء التعساء جميعهم؟ ولماذا أصبحت الكراهية طاغية أكثر من الحب؟ ولم يعيش الناس في رعب داخل بيوتهم التي يُفترض أن يسودها الأمن؟ ولماذا يصبح كثير من الأطفال مدمني مخدرات، أو مجرمين، أو أتباع طوائف دينية – أو في أفضل الحالات غير مهذّبين تجاه الغرباء؟

في الواقع، معظمنا لا يعرف كيفية التصرّف لمساعدة الأطفال على كيفية الاستمتاع بالحياة، وهذا يعود إلى أنّنا لم نتعلّم هذا السرّ البسيط. ببساطة، لا نستطيع تعليم الآخرين

شيئاً لا نعرفه. إننا نستمر في الدوران داخل حلقة مفرغة سلّمت إلينا. وعلى هذا، يصبح أطفالنا ضحايا جهلنا الأبوي. وعلى الأغلب، فنحن نعتقد أننا نعرف أسرار تشكيل الإنسان الناجح، ونقضي وقتاً طويلاً في ترهيب أطفالنا كي يستسلموا لما نعتقد أن يكونوا عليه. نحن نراجع أخطاءنا، ونقسم على ألا نتكرّر عند أطفالنا. كما نفترض أننا أصبحنا نمتلك الحكمة لمجرد أننا عشنا عمراً أطول، وأنّ على الأفراد الأصغر سنّاً منا تقبّل هذه الحكمة. وفي الحقيقة، إنّ تعلّم كيفية الاستمتاع بالحياة هو موقف في حدّ ذاته. وخلاصة الأمر أنّ علينا الاختيار بين أن نتعلم أو لا نتعلم. ولكننا عادة ما ننسى هذا، أو أننا أنفسنا لا نملك هذا الاعتقاد الدّاخلي. وبالنتيجة، لن نتمكن من نقله إلى الأجيال الشابة. تقول الفرضية الرئيسة في هذا الكتاب، وفي كلّ شيء كتبته في حياتي: يجب أن تكون القدوة، وأن تكون قادراً على نمذجة ما تحاول أن تعلّمه للآخرين.

أن تكون له مثلاً وقدوة

تصوّر أنك ذهبت يوماً إلى طبيب أسنان، فأخذ يلقي عليك محاضرة عن أهمية العناية بالفم، في حين كانت ابتسامته تكشف عن أسنان أمامية نخرها السوس. أو تصوّر أنك تتحدث إلى طبيبك الذي أخذ يسرد أمامك مضار التدخين وهو ينفث دخان سيجارته في وجهك. لاشك أنّ ردة فعلك الأولية ستكون حادة، وستقول لنفسك: هذا الشخص مزيف. وينسحب المنطق ذاته على تعليم المواقف الحياتية. فإذا كان هدفك مساعدة الأطفال على اكتساب تقدير للحياة، وتطوير القدرة على الاستمتاع الدائم بها، فعليك أولاً أن تبدأ بنفسك، ونمذجة هذا النوع من المواقف في تفاعلاتك وتصرفاتك جميعها.

وإذا كنت تكبّ نفسك باستمرار، وتعيش حياتك يوماً بيوم دون تقدير لذاتك، فإنّك في الحقيقة تظهر للأطفال أنك لا تقدّر ذاتك عالياً. ولهذا، فإنّك غير جدير بتعليم أيّ طفل تقدير ذاته.

عليك أن تكون قدوة! إذا أردت منهم تغيير سلوكهم فمن الضروري أن تقدّم لهم صورة لشخص يحترم ذاته. ومن المهم أن تكون حياتك متماسكة إذا كنت ستقدّم لهم مثلاً يُحتذى به.

لا يوجد ردّ على الموقف السلبي للطفل أفضل من النموذج الإيجابي. ويمكنك أن تبحث عن الإجابات للردّ على هذا في كتب الأطفال التي نشرت حتى الآن جميعها. ولكن، بالنسبة إلى طفل تنقصه الدافعية، فليس هناك جواب أفضل من جواب شخص يتمتع بدافعية عالية. إنّ أفضل من يردّ على طفل غاضب هو إنسان هادئ. وأفضل ما يجيب على طفل متعصب هو شخص محبّ متسامح. كما أنّ أفضل من يشجّع طفلاً خائراً الهمة شخص متحمّس. ومع أنّ ليس من الضروري أن يكتسب أطفالك مزاياك جميعها، إلا أنّ أفضل ما تبدأ به مشروع تنشئة الأطفال ليعطوا أفضل ما لديهم، هو أن تفعل الشيء ذاته لنفسك، وأن تكون قدوتهم ما أمكنك ذلك.

حتى وإن لم تكن ذلك الشخص الذي قهر مكان من الخطأ فيه، وتشعر أنه لا يزال لديك الكثير من العمل لتنجزه، فبإمكانك أن تبدأ بتصويب التعليقات التي تصدر عنك أمام أطفالك. مثلاً، بإمكانك أن تحاول وقف أيّ عبارات تدمّر تعكس عدم قدرتك على الاستمتاع بالحياة، مثل:

هذا أمر محبط؛ لن نتقدّم أبداً.

يبدو أنّ الحظّ لا يحالفنا بتاتاً.

كيف لي أن أكون سعيداً مع هذه المتاعب التي تسببها لي.

من لا حظّ له لا فائدة من تعبه وكده.

الحياة مأزق.

وعندما تعمل على إزالة العبارات التي تعكس عدم القدرة على الاستمتاع بالحياة، فإنك، في الحقيقة، تعطي مثلاً حيّاً لشخص واحد على الأقل يرفض الانهزام أمام الحياة. وهناك جُمل جديدة يمكن أن تتمرّن عليها كلّ يوم، وبخاصة عندما لا تسيّر الأمور على هواك، حتى وإن كنت لا تؤمن بها بعد. ومن هذه الجمل:

ما حدث أمر بسيط؛ غمامة صيف عن قريب تقشع.

ما بعد الضيق إلا الفرج.

كلُّ يقلع شوكة بيده.

الإنسان يصنع حظه بنفسه.

الحياة جميلة.

ويمكن أن نرى في كلِّ واحدة من الجمل السابقة الفرق بين أحد الآباء الذي يعطي مثلاً متشائماً دائماً، وآخر ينظر إلى الجانب المشرق من المسألة ذاتها. فإذا كنت تريد لأطفالك أن يطوروا القدرة على الاستمتاع بالحياة في الأوقات جميعها، ولكنك ترى كثيراً من المواقف السلبية تهدد شخصياتهم، فعليك أن تبدأ المهمة بقلب هذه المواقف من خلال النظر إلى نفسك أولاً. ولن تستطيع إزالة السلوكات والمواقف المدمرة للذات جميعها عند أطفالك بمجرد تغيير نفسك، ثم التوقف عند هذا الحد، ولكنك تستطيع إحداث ثغرة في ذلك الدرع السلبي، من خلال إعطاء الأطفال، دائماً، مثلاً لشخص يرفض أن يكون أحد ضحايا الحياة.

وفي الوقت الذي تفكر فيه بإعطاء نموذج حي لشخص يعرف كيفية الاستمتاع بالحياة، ليس من أجل أطفالك فحسب، بل لصالحك أيضاً، ذكر نفسك بالأشياء المهمة حقيقة في الحياة. فنحن كثيراً ما نعطي قيمة كبيرة لقوانين التعلم، واكتساب المعرفة، والتحصيل، والمكافآت الخارجية، مثل فرصة وظيفة في سوق الأسهم، أو القدرة على جمع النقود. غالباً، نصنّف هذه الأشياء ضمن معظم أهم القيم التي يمكن أن يمتلكها الإنسان، وكل ذلك على حساب الميزات الأكثر أهمية، وهي ببساطة، قدرة الإنسان على أن يكون سعيداً.

ما تعرفه مقابل ما تشعر به

ما الشيء الأكثر أهمية في حياتك؟ ما تعرفه أم ما تشعر به؟ إنَّ من المستحيل الفصل بين الاثنين تماماً. ولكن بصورة عامة، ما الذي تفضّله؟ معرفتك أم مشاعرك؟

كلنا يعرف أننا نصبح أقلّ فاعلية ونشاطاً عندما نشعر بالحزن، ونواجه صعوبة في أداء واجباتنا بفاعلية إلى أن تتمكن إلى حدٍّ ما من تعديل الشّعور السيئ الذي نمرّ به. تعدُّ الأحاسيس، أو المشاعر، أهم جانب من جوانب حياتنا. ومع ذلك، فإننا نهملها تماماً عندما نركّز على اكتساب المعرفة في كلِّ من البيت والمدرسة. لقد واجه المربّون هذه

المعضلة على مدى قرون. وأصبح المنحني الوجدانيّ (العواطف) مقابل المنحني المعرفي (المعرفة) هو المصطلح الذي يُطلق على هذه المعضلة في الميدان التربوي. إنّ المدارس تنفق أكثر من 95% من ميزانياتها وطاقاتها على الجانب المعرفي. كما يخصص أولياء الأمور القدر ذاته من طاقاتهم وأوقاتهم في تطوير المجال المعرفي هذا. في حين ندرك تماماً في صميم قلوبنا أنّ مشاعرنا تحظى عملياً بالأولوية في جميع اللحظات المهمة في حياتنا.

إنّ تعلّم إدارة المشاعر، وامتلاك الثقة بالنفس، وتقدير الذات، وتجنب الكآبة والخوف والقلق والتوتر، والشعور بالذنب والغيرة والخجل، وما شابه ذلك – مهارات أساسية يمتلكها الأشخاص ذوو القدرات الواسعة. إنّ مناطق المهارة هذه تكتسب أهمية خاصة في المجال الوجدانيّ لكي نعيش حياة سعيدة متكاملة؛ أيّ ذلك النوع من الحياة الذي يجعلك تقدّر هذه الحياة، وتستمتع بها دائماً. ومع ذلك، فنحن نتجاهل المهارات الوجدانيّة، ونعدّها أموراً تافهة، أو أشياء نعرفها فعلاً. وفي الحقيقة، القليل منا من يستطيع إدارة عواطفه. وهناك عدد أقلّ قادرون على تعليم أطفالهم كيفية تجنب شباك التعليم غير الفاعل في المجال الوجدانيّ.

إنّ الأشخاص الذين يتعرضون لانهايار عصبي ليسوا بالضرورة غير متعلمين، بل على العكس من ذلك، غالباً ما يكونون قادرين على نظم قصائد معقدة، أو فكّ ألغاز القصائد الرمزيّة. أما الأشخاص الذين يتناولون الأقراص المهدئة كي يتكيفوا مع واقعهم، فقد كانوا بارعين سابقاً في حلّ المعادلات التربيعة. وأنّ الأشخاص الخجولين يحصلون على أعلى العلامات في مهارتي القراءة والكتابة، في الوقت الذي برع فيه الأشخاص الفاقدون للحبّ والثقة في مسابقة تهجئة الكلمات. وليس هذا فحسب، بل إنّ الأشخاص الغاضبين والعدوانيين غالباً ما يتقنون متطلبات وظائفهم، وأنّ باستطاعتهم تتبع الدارات الكهربائية المعقدة في الأجهزة الإلكترونية. وعادة ما يستطيع الأفراد الخائفون القيام بعمليات الجمع والطرح، إضافة إلى عدم تعييبهم عن المدرسة. وهكذا، بدأت الآن تتبين المهارات الحقيقية المهمة التي يتمّ تجاهلها بدعوى اكتساب التعليم. وأنا أؤيد بشدة تعلّم المهارات المعرفية؛ لأنّ الفرد كلما زادت معرفته في المجالات جميعها، أصبحت حظوظه أفضل ليصبح إنساناً بلا حدود طوال حياته.

في الواقع، الهدف الرئيس للتنشئة هو تعليم الأطفال ليصبحوا فيما بعد آباء. فأنت تريد للأطفال الاعتماد على توجيهاتهم الداخلية، وأن يكونوا مستقلين في تفكيرهم، وتجنب السقطات العاطفية المدمرة، وأن يعرفوا أنّ لديهم مهارات باستطاعتهم استغلالها، وأن يعيشوا حياة سعيدة، وكذلك التوقّف عن استشارتك إلى الأبد.

صحيح أنّ عليك أن تكون مرشدهم لفترة من الزمن، ولكن، بعد ذلك، سوف تتمتع بروئيتهم وهم يستقلون بذواتهم. ولتحقيق ذلك؛ ربما يتطلب الأمر أن تثقف نفسك في مواصفات الحياة التي لا تعرف الحدود، وأن تمد يدّ العون لهم ليتخذوا خياراتهم بأنفسهم، وأن يكتسبوا أكبر قدر من المهارات المعرفية كما يحبّون، مع امتلاكهم الدائم لقدرات الإتقان في المجالات الوجدانية أيضاً.

وهناك أيضاً عدة مواصفات للمجال الوجداني الذي تكتسب فيه مشاعر الإنسان أهمية كبيرة. وسوف تكتشف هذه الأهمية عندما تحظى أنت وأطفالك بمزايا هذه المواصفات. عندئذٍ، لن تنسوها أبداً. وفي الواقع، سوف ترافقكم أينما ذهبتم، وسوف توظفونها في أيّ مهمة تقومون بها طوال حياتكم، سواء كان أحدكم ينظف خزائنه، أو يعمل في الحديقة، أو يرتق قطعة ملابس، أو يدفع مخالفة مرور، أو يمر بتجربة عاطفية؛ إنها أدوات توظفها في المهمات والخبرات الحياتية جميعها، ولن يكون بمقدورك أن تتجاهلها بعد الآن.

المجال الوجداني

إن أحد الافتراضات الرئيسة لهذا الكتاب هو أنك تريد لأطفالك حياة سعيدة، خالية من الأمراض العصبية. فأنت تريد مساعدتهم على استبطان مواقف ومهارات محدّدة ستخدمهم طوال حياتهم، بطريقة يعرفون معها كيف يعيشون ببراعة وإتقان. منذ البداية، تدرك أنهم لن يتعلموا هذه المهارات والمواقف في غرفة الصّف؛ لأن المدارس لا تملك مناهج دراسية لتطوير طلاب بارعين بلا حدود، بل إنّ هذه المدارس تعمل، غالباً، في اتجاه مغاير لهذه الغايات. لذا، على الأطفال البحث عن اكتساب أفكار لا تعرف الحدود في العالم الواقعي. وقد صاغ الشاعر والرّوائي الأمريكي ميلفيل (1891-1891) Heiman Melville مؤلف «موبي ديك» هذا الأمر على النحو الآتي: لقد كانت سفينة صيد الحيتان جامعتي بدلاً من جامعتي بيل وهارفارد. وهذا تعبير ذكي للقول بأنّ الإنسان يتعلم من الممارسة، وليس من الاستماع إلى المحاضرات في إحدى الجامعات الشهيرة.

ولهذا، فإنّ أطفالك يحتاجون إلى سفينة خاصة بهم إذا كان عليهم تعلّم كيفية الإبحار والاهتداء إلى مصيرهم العاطفيّ.

إنّ الانغمار في عالم الشّعور خبرة رائعة ومكافأة بحدّ ذاته؛ ففي هذا العالم الوجدانيّ، لا توجد قوانين لتذكّرها، ولا امتحانات لنوّدّيها، ولا علامات تسجل على بطاقتنا، بل إنّ المكافأة التي نحصل عليها من هذا العالم هي أن نعيش حياة سعيدة راضية بصرف النّظر عن الواجبات التي نوّدّيها. إنّ القوانين في هذا العالم مرنة ومتعددة، أما الامتحانات فهي الطّرق التي تعالج بها أمور الحياة اليومية الحقيقية. وهذا العالم ليس تعليمًا صفيًّا لبيئة مصطنعة، أو طريقة لجمع أموال كثيرة في مرحلة متأخرة من العمر. في هذا الجزء من حياتك، أيّ وضع تمرّ به، وأيّ إنسان تصادفه، وكلّ لحظة من لحظات الحياة فرصة لإظهار مهاراتك وقدراتك. إنه عالم كينونتك الذي تستعمل فيه معرفتك ومهاراتك طوال الوقت، ولا تضطر فيه إلى الانتظار حتى تعمل في السّوق لتعرف سبب دراستك موضوعاً بعينه. وسوف ترى بأنّ عينيك في كلّ يوم من أيام حياتك الأسباب المقنعة التي جعلتك تعمل بجدّ في تعلّم هذه المهارات والمواقف.

وفي ضوء ما تقدّم، فإنّ أهدافنا بسيطة جدًّا، وهي أن نرتقي بمهاراتنا في تعليم أطفالنا إلى حدّها الأقصى ليكونوا أقوياء وأصحاء بقدر ما يستطيعون، ضمن نطاق حياتهم الذي يدعى الشّعور. ونحن نريد لأطفالك أن يتعلموا خصائص العيش دون قيود. وباستطاعتنا مساعدتهم على تحقيق هذه المهارات عالية المستوى من خلال جهودنا الأبوية. وكهدف ثانويّ رائع، قد نصبح نحن أيضاً أقوياء وأصحاء مثلهم، والركن الوجدانيّ لهذا العالم.

ما مكوّنات العالم اللامحدود؟ سوف يركز كلّ فصل من فصول هذا الكتاب على ميزة محدّدة تشكّل الوظيفة السامية المتوافرة للناس في ثقافتنا، كما يظهر الكيفية التي تساعد فيه أطفالنا على استبطان هذه الميزة المحدودة. وأنا أسمّي الذين يُظهرون هذه الميزات باستمرار الناس الذين لا حدود لهم؛ لأنهم لم يفرضوا على أنفسهم قيوداً نابعة من الدّاخل، كما يرفضون السّماح للآخرين أن يفرضوا عليهم أيّ قيود كذلك. لقد استخدمت كتاب آخرون من الذين درسوا السلوك الإنسانيّ في الماضي، أو صافاً مثل: العصاميّين، والموجهين داخليّاً، والواعين، والمدرّكين.

ومهما يكن من أمر، فإن الطريقة التي تشير بها إلى الأشخاص هي أن الشخص اللامحدود هو الذي يتمتع بتقدير الذات، والثقة بالنفس على مستوى عالٍ مهما كان الوضع الذي يواجهه، أو يمرّ به؛ فهذا النوع من الأشخاص يتمتع بحماس تجاه نفسه، ويشعر بالانتماء لهذا العالم. إنه يبحث عن المجهول، ويجوب العوالم الغامضة، وينظر إلى الحياة على أنها معجزة وليس عناء.

وعلى العموم، فإن الشخص اللامحدود يعمل بناءً على دوافع داخلية، وثقة بنفسه، واستعداد للمخاطرة. وقد يمرّ بحالات غضب أحياناً، ولكنها لا تعيقه عن الحركة. إنه لا يفقد السيطرة على نفسه في أي وقت. إنه لا يشكو ولا يتذمر، ولكنه إنسان عملي، ولا يستدرّ عطف الآخرين لحظه العاثر. هذا الشخص، لا يقضى وقته في التفكير في ماسيأتي، ولكنه يركّز، بدلاً من ذلك، على ما يمكن عمله ليتجنب المشكلات الحالية. كما أنه لا يظّل مهموماً وشاعراً بالذنب حول ماضيه، بل يعرف كيف يتعلم من ذاك الماضي دون أن يشعر بالانزعاج أو الأسى من أشياء حدثت وانتهت. إنه شخص ذو إحساس قويّ بغايته ومهمته في الحياة، وأن لا أحد يستطيع أن يسلبه هذا الجلد والإرادة الداخلية؛ إنه يواظب على أداء مهمته، ولا تزيده العقبات إلا تصميمًا.

هذا الشخص، مدفوع بصفات وميزات عالية مثل: تقدير الجمال، والحب، والاحترام، والإنصاف، والسلام العالمي. ويميل هذا الشخص إلى الاهتمام بالقضايا الكونية بدلاً من حصر ذاته ضمن حيّ، أو بلد، أو عائلة، أو مجموعة عرقية ما. كما أنه يحمل هم الإنسانية جمعاء، دون التركيز على دوافعه الشخصية الأنانية. إنه شخص مهتم بالأفكار أكثر من اهتمامه بالملكات والمقتنيات. إضافة إلى سعيه الحثيث في جعل العالم مكاناً أفضل أكثر من اهتمامه بوظيفة في مكتب محاماة مرموق. وهو يعرف أن سعادته تنبع من داخله؛ ولذلك فهو لا يبدّد حياته سعيًا وراء أشياء امتلكها دائماً، مثل السعادة، والحب، والنجاح، والإنجاز، بل يضيف هذه الميزات إلى حياته، بدلاً من طلبها من الحياة.

هذا الشخص، يتخذ منحى تعاونياً في الحياة، وهو لا يشعر بالتنافس مع الآخرين. ومن التّادر أن يقارن نفسه بهم لقياس تقدمه. إنه موجه من الداخل، ويرى نفسه فريداً في الكون كلّهُ. ولهذا، تبدو المقارنة لا قيمة لها بالنسبة إليه. كما أنه يسعى وراء الحقيقة بدلاً من الاهتمام بكسب رضا الآخرين، أو إثبات أنه على حق. ولأنه قادر على أن يعيش اللحظة

الحاضرة، فإنه لا يقلق كثيراً بما سيحدث في المستقبل، أو تكرر ما حدث في سابق الأيام. إنه على يقين بأن رضا الناس غاية لا تُدرَك. وبسبب هذه القنوات الداخليّة القويّة، فإنه غير معنيٍّ بمحاولة إثارة إعجاب الآخرين، أو السعي وراء تكديس الثروة كي يظلّ في القمة. مثل هذا الشخص، يتجنب إصدار الحكم على الآخرين، ويؤمن بحق كل إنسان في اختيار طريقه طالما لا يتعارض ذلك مع حقوق الآخرين ليفعلوا الشيء ذاته.

إنّ العلامة التجاريّة لمثل هذا الإنسان هي أن يحيا الحياة؛ كخبرة الصّعود إلى القمة بشعور من التقدير العالي. وهو لا يسعى وراء النشوة بمواد مصطنعة، بل يفرح بكلّ شيء يمكن أن تهبه الطبيعة له. ولا يوجد في قاموسه كلمات تشير إلى الملل أو اللامبالاة.

ولأنّه يقدر الحياة، فمن الصّعب أن تعثر على أشياء لا تبهره. وهو لا يتظاهر بذلك، ولكنه قادر، في الواقع، على انتزاع الشّعور بالسّعادة من كلّ شيء؛ فهو يحبّ الأوبرا، ويمارس مهارتي التسلّق وألعاب القوى، ويهوى قراءة الشعر. إنه يجسّد قول الكاتب المسرحيّ الرومانيّ تيرنس، Terence (190 – 195 ق. م): أنا إنسان، وكل ما هو إنسانيّ ليس غريباً بالنسبة لي.

إنّ هؤلاء الأشخاص يعيشون حياة صحيّة، يحافظون على لياقتهم البدنية، ولا يغويهم أيّ شيء للتخلّي عن ذلك. ولا يعزى سبب ذلك إلى أنّهم أفضل من الآخرين، ولكن لأنّ لديهم نوراً داخليّاً يكشف لهم عن شعور الإنسان السمين، أو المترهل، أو المدمن، أو الذي يلتهم الأطعمة الضّارة للجسم؛ إنهم يجمعون بين الجسم السليم والعقل السليم طريقة لعيشهم، ولا يتخلّون عن ذلك ليكونوا مقبولين اجتماعيّاً.

هؤلاء الأشخاص يتمتعون بروح الدعابة، ويضيفون جوّاً من المرح على المكان الذي يكونون فيه، ولا يضيّعون وقتهم في لوم الآخرين على عيوبهم. ويتمثّل عدم لومهم للآخرين في أنّهم لا يبحثون عن عيوب في الآخرين لتبرير عيوبهم. إنّ توجيهم الدّخليّ يساعدهم على تحمل مسؤولية حياتهم وأهدافهم في هذه الحياة بصفتهم أشخاصاً مستقلّين. إنهم لا يصنّفون أنفسهم وفقاً لمعايير الفشل والنجاح، وإنما يتقبّلون الفشل على أنّه جزء من التّعلم. وهم مستعدّون لتجربة أيّ شيء يستهويهم. إنهم مستقلّون بفكرهم، ومعتدّون بآرائهم. لذا، فإنّهم يتجاوزون القوانين والعادات التافهة التي تقيد الآخرين كثيراً وتربكهم. ويمتلك هؤلاء الأشخاص خيلاً إبداعيّاً، ويتأملون في كيفية إنجاز المهام قبل البدء بها. وهم غير

مشغولين كثيراً بفكرة الفوز؛ سواء كان ذلك كسب الآخرين إلى جانبهم أو هزيمتهم. ومع ذلك، فهم يعتبرون فائزين من قبل الأشخاص الذين يصنّفون الناس وفق قاعدة الفوز والخسارة.

إنّ حياة هؤلاء الأشخاص خالية من الكآبة والحزن؛ لأنّ لهم مواقف فريدة تجاه الحياة؛ فهم ينظرون إلى الجانب الإيجابي منها، في حين ينظر الآخرون إلى جانبها السلبي. إنهم يثقون بقدراتهم في إنجاز المهام بدلاً من التفكير بالمستحيلات. زد على هذا أنّ حماسهم يجنبهم الانهيار العاطفي. وباختصار، نحن نتحدث عن أشخاص يمتلكون زمام أمورهم، ويتمتعون بطاقة مدهشة في معظم الأوقات للاستمتاع بالحياة. أما آخرون، فقد مسّهم الجنون لعدم قدرتهم على تقبّل الحياة كما هي. وقد عرضنا هذا الوصف المختصر هنا في الفصل الأول لإعطاء القارئ لمحة سريعة عمّا أتحدث عنه عندما أقول إنّ الأطفال الصغار الأبرياء يتمتعون عملياً بهذه الصفات جميعها، على أنّها جزء من فطرتهم المتوارثة، ولكنهم، غالباً، لا يعودون يرون هذه الصفات الفطرية في سعيهم وراء السعادة والنجاح. لذا، فهم بحاجة إلى تعلّم كيفية توظيف قدراتهم الداخلية وهم ينغمسون في مسيرة الحياة. من الطبيعي أن يكون الإنسان سعيداً، ومعافى، وعقلانياً، وناجحاً، وموجّهاً من داخله. وهكذا، فهذه صفات بشرية طبيعية، ولكننا ننحّيها جانباً في سعينا وراء المعايير الخارجية للنجاح.

لقد انطلقت في تأليف هذا الكتاب من فكرة وجود إنسان غير محدود في داخل كلّ منّا، ولكننا نفقد هذا الإنسان عندما نحاول أن نكيّفه مع معاييرنا الثقافية للنجاح في الحياة. والمفارقة الكبيرة في هذه الحياة هي عدم وجود طريق واحد يوصل إلى السعادة؛ السعادة نفسها هي الطريق. وبالمقابل، لا يوجد طريق محدّد يوصل إلى النجاح؛ فالنجاح موقف داخليّ نضيفه إلى مساعيّننا ومحاولاتنا. فإذا سعيت وراء الحبّ فسوف يفلت منك ويضلّلك. فعليك والحالة هذه، أن تستدرج الحبّ إليك. وإذا بحثت عن الأمن فسوف تشعر دائماً بأنك غير آمن. وإنّ لهتت وراء المال فلن تقنع أبداً.

إنّ الأشخاص العصبيين نادراً ما يستنبطون هذه المفارقات؛ فمعظمهم يقضون حياتهم بحثاً عن السعادة والأمن والحبّ، ولا يتوقفون أبداً ليتحققوا أنّ بإمكانهم الحصول على ما يريدونه لو أنهم توقّفوا عن المطاردة والجري، وأدخلوا هذه المواقف إلى حياتهم، سواء

في العمل أو اللهو. ويبدو أنّ الأطفال يعرفون هذه المعادلة؛ فحياتهم زخرة بهذه الصفات الرائعة. وعليه، يجب أن نعطي الأطفال حقهم الفطري كأطفال غير محدودين من أجل أن يكبروا على أنهم بالغين غير محدودين. صحيح أنهم يحتاجون إلى توجيهنا، ومن المؤكد أيضاً حاجتهم إلينا لمساعدتهم على تجنب أن يصبحوا مدمرين لذواتهم في فوران حماسهم للحياة، ولكن علينا دائماً التذكّر بأننا بحاجة إلى أن نتعلم من أطفالنا بالمقدار نفسه الذي نقدّمه لهم. ونحن لا نريد هدر جهودنا الأبوية من خلال افتراض أنّ من حقنا تشكيل هؤلاء الأطفال إلى ما نعتقد أنه صواب بالنسبة لهم. بل علينا أن ننظر إليهم على أنهم مثاليون تقريباً من منظور المهارات والموافق الالامحدودة. لذا، ينبغي لنا توخّي الحذر الشديد حتى لا نسلبهم هذه الصفات في أثناء حماسنا لجعلهم ناجحين وفق معاييرنا الخارجية للتجاح.

وعلىنا عدم نسيان أهدافنا في أثناء استكشاف ما نقوم به؛ فنحن نحاول تهذيب أطفالنا وتشجيعهم على السير لتحقيق أحلامهم ومساعدتهم، وكي يصلوا إلى ما تمكنهم قدراتهم من الوصول إليه، مع اعترافنا في الوقت ذاته بأنهم مخلوقات كاملة. وعلينا أن ندرك أنهم لن يتفقروا معنا دائماً، بل إنهم يريدون السير في الطريق الذي يختارونه هم لا غيرهم. وأن تكون لهم أفكارهم الخاصة بهم، وأنهم سوف يختلفون معنا في الرأي بالنسبة لما هو مناسب لهم أكثر من اتفاقهم مع آرائنا بخصوص ما هو لصالحهم. وعلينا كذلك ألا ننسى أنّ لديهم أنواراً داخلية لا نراها، وأنّ رؤيتهم يصعب أن تتفق مع رؤيتنا، وابتهالاتهم لن تكون أبداً مثل ابتهالاتنا، وقد تتباين أفكارهم كثيراً مع أفكارنا.

ومما لا شك فيه أنّ هذه السمة الرائعة للسعادة الالامحدودة الكاملة التي نودّ غرسها في أطفالنا لن تأتي دون صراع. إلّا أنّ هذا الصراع يجب ألا يكون مع أولياء الأمور الذين يسرهم أن تنجح جهود أطفالهم ليتحققوا ما الصواب بالنسبة إليهم. ولا يوجد تحدّي في هذا العالم أكبر من أن تكون والدًا. وعليه، يجب أن نسلم دفة المركب لأبنائنا الصغار، ونكتفي بدور البحارة المؤقتين.

ويحتم واقعا الحالي أنهم سوف يتولون القيادة، وكذلك سيفعل أبنائهم في يوم ما؛ لأنّ هذا هو قدرهم ومصيرهم. وإذا كنا نستطيع أن نستشف أهمية تنشئتهم حتى لا تعيقهم أيّ حدود، وأن يكبروا حتى يحققوا ذواتهم، فقد نفاجأ كثيراً إذا ما اكتشفنا أنّ المشكلات التي فشلنا في اجتثاثها — مثل الفقر، والجوع، والحروب، والجريمة، والتلوث البيئي

وغيرها - يمكن التعامل معها بطريقة أفضل من قِبَلِ جيل جديد ذي شخصية بارعة. وربما، وهذا مجرد احتمال وأمنية، لو أنهم لم يكونوا مشغولين بمشكلاتهم التافهة، ولو أنّ لديهم شعوراً بالانتماء ومعنى للهدف، فسوف يكونون مستعدين للتعامل مع المشكلات الكبرى وحلّها. والشاهد على هذا القولُ الصّينيّ:

إذا كنتَ تفكّر في السنة القادمة فازرع بذرة.

وإذا كنتَ تفكّر لعشر سنوات قادمة فازرع شجرة.

وإذا كنتَ تفكّر لمئة سنة قادمة فازرع شعباً.

ولك أن تصوّر عالماً مليئاً بالآباء المتعلمين الذين يربّون أبناءهم ليصبحوا أفراداً غير محدودين؛ جيلاً مستقراً عاطفياً، ذا دافعية عالية، لا يفكّر بطريقة تدميرية كالتي هيمنت على عالمنا حتى الآن. لقد كتب جون رسكن، الذي ورد ذكره في بداية هذا الفصل: البلد الأكثر ثراءً هو الذي يرفع أكبر عدد من النبلاء والسعداء. ويظل هذا مجرد احتمال، ولكنه يظل أعظم شيء يمكن أن يخطر في البال، وهو تعليم الناس، وإيجاد دول كاملة يكون معظم سكانها نبلاء وسعداء.

